وصايا التابعين

obeikan.com

obeikan.com

وصايا التابعين

عن عطاء بن مسلم الخَفَّاف قال، قال لي سفيان ﷺ: يا عطاء، احذر الناس، وأنا فاحذرني. فلو خالفت رجلاً في رمَّانة، قال: حامضة، وقلت: حلوة؛ أو قال: حلوة، وقلت: حامضة - : لخشيت أن يشيط بدمي[٤٦].

قال عبد الله بن الحسن بن الحسين رضوان الله عليهم لابنه محمد ﷺ: يا بني، احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحًا، كما تحذر العاقل إذا كان عدوًا؛ فيوشك أن يورطك الجاهل بمشورته في بعض اغتراره، فيسبق إليك مكروه فكر العاقل. وإياك ومعاداة الرجال، فإنها لن تعدِّيك مكرَ حليم أو مفاجأة جاهل.

كتب إلى عبد الله بن الحسن ﷺ صديقٌ له: أوصيك بتقوى الله ﷻ، فإنه جعل لمن اتقاه من عباده المَخْرَجْ مما يكره، والرزق من حيث لا يحتسب.

قال المدائني: قال زيد بن علي ﷺ لأصحابه: أوصيكم بتقوى الله، فإن الموصي بها لم يدخر نصيحة، ولم يقصر في الإبلاغ. فاتقوا الله في الأمر الذي لا يفوتكم منه شيء وإن جهلتموه؛ وأجملوا في الطلب، ولا تستعينوا بنِعَم الله على معاصيه. وتفكروا وأبصروا: هل لكم قِبَلَ خالقكم من عمل صالح قدَّمتموه فشكره لكم؟ فبذلك جعلكم لله تعالى أهل الكتاب والسنة، وفضلكم على أديان آبائكم. ألم يستخرجكم نُطفًا من أصلاب قوم كانوا كافرين، حتى بثكم في حجور أهل التوحيد، وبث من سواكم في حجور أهل الشرك؟ فبأي سوابق أعمالكم طهَّركم؟ إلا بمنّه وفضله الذي يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وصية الربيع بن خثيم:

وروى إسرائيل عن يونس بن أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن مسروق الثوري عن منذر بن يعلى الثوري قال: أوصى الربيع بن خثيم: هذا ما أوصى الربيع بن خثيم: شهد أن لا إله إلا الله وكفى بالله شهيدًا، وجازيًا لعباده الصالحين ومثيبًا. إني رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وبالقرآن إمامًا. وإني

(٤٦) حلية الأولياء (٧/ ٨).

أوصي نفسي ومن أطاعني أن يعبد الله في العابدين، ويحمده في الحامدين، وينصح لجماعة المسلمين.

عن أبي ربيعة السعدي قال قيل للربيع بن خثيم ألا توصي قال بم أوصي فقد عرفتم أنه ليس لي درهم ولا دينار وليس أحد يخاصمني عند ربي ﷻ ولا أخاصم أحدا قيل له بل أوصي قال إن لي امرأة شابة فإذا أنا مت فحثوها على التزويج واطلبوا لها رجلا صالحا وبني هذا إذا رأيتموه فامسحوا رأسه فإني سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة قيل له بل أوص قال: هذا ما أوصى به الربيع بن خثيم وأوغل على نفسه واشهد الله ﷻ عليه وكفى بالله حسيبا وجازيا لعباده الصالحين ومثيبا لهم إني رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا و بمحمد نبيا وبالقرآن إماما. ولما حضرت الوفاة عمر بن هبيرة جزع وجعل يقول: لله در البغلات المسرجات الواقفات بأبواب السلطان. والله لوددت أني كنت راعي إبل مئة لرجل سيء الملكة.

ولما احتضر إبراهيم بن يزيد النخعي جزع جزعًا شديدًا وجعل يقول: نفسي أعز الأنفس علي. فقيل له: يا أبا عمران، أتجزع هذا الجزع من الموت ؟ فقال: وأي غرر أعظم مما أنا فيه، إنما أتوقع رسولاً من ربي إما بجنة وإما بنار[٤٧].

لما اشتدت علة ابن طباطبا، وهو محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا ابن حسن، قال له أبو السرايا الخارج معه: أوصني يا ابن رسول الله فقال: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين. أوصيك بتقوى الله فإنها أحصن جنة وأمنع عصمة، والصبر فإنه أفضل منزل وأحمد معول، وأن تستتم الغضب لربك تعالى، وتدوم على منع دينك، وتحسن صحبة من اصتحبك واستجاب لك، وتعدل بهم عن المزالق، ولا تقدم إقدام متهور، ولا تضجع تضجيع متهاون، واكفف عن الإسراف في الدماء ما لم يوهن لك دينًا ويصدك عن صواب. وارفق بالضعفاء. وإياك والعجلة فإن معها الهلكة. واعلم أن نفسك موصولة بنفوس آل محمد عليه الصلاة والسلام، ودمك مختلط بدمائهم، فإن سلموا سلمت وإن هلكوا هلكت، فكن على أن يسلموا أحرص منك على أن يعطبوا. وقر كبيرهم وبر صغيرهم، واقبل رأي عالمهم، واحتمل هفوة إن كانت

(٤٧) التعازي والمراثي (صـ١٠١).

من جاهلهم، يرع الله حقك، واحفظ قرابتهم يحسن الله نظرك، وول الناس الخيرة لأنفسهم في من يقوم مقامي من آل علي، فإن اختلفوا فالأمر إلى علي بن عبيد الله، رضيت دينه ورضيت طريقته، فارضوا به وأحسنوا طاعته تحمدوا رأيه وبأسه[٤٨].

كتب سفيان الثوري إلى عباد بن عباد: أما بعد فإنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون أن يدركوه في ما بلغنا، ولهم م العزم ما ليس لنا ولا لك، ولهم من العلم ما ليس لنا ولا لك. فكيف بنا وقد أدركناه على قلة علم وبصر، وقلة أعوان على الخير، وكدر من الدنيا، وفساد من الناس؟ فعليك بالعزلة وقلة مخالطتهم فإن عمر يقول: إياكم والطمع فإنه فقر حاضر، وإن اليأس غنى، وفي العزلة راحة من خليط السوء. وكان سعيد بن المسيب يقول: العزلة عبادة. وكان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، والنجاة في تركهم فيما ترى. وإياك والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الشياء. وإياك أن تخدع فيقال: ذلك رجل تشفع فيه ترده عن مظلوم أو ترده عن مظلمة، وإنما ذلك خديعة إبليس اتخذها فخًا. وكان يقال: اتقوا فتنة العابد وفتنة العالم فإن فيهما فتنة لكل أحد. إياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله أو يسمع من قوله، فإذا لم تزل كذلك فقد عرفت. وإياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهذا باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء. واعمل بنية فإن الحسن رحمه الله كان يقول: رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإنه ما من عبد يعمل حتى يهم، فإن كان له مضى، وإن كان عليه أمسك، فإن النية ليست كل ساعة تقع. وإن طاووس قيل له: ادع لنا بدعوات فقال: ما أجد الآن لذلك نية. وكان حذيفة ﷺ يقول: يأتي على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا بمثل دعاء الغريق. وسئل حذيفة عن أي الفتن أشد فقال: أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تترك. وقد ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: لا تزال يد الله على هذه الأمة في كنفه، ما لم يمل فراؤهم إلى امرائهم، وما لم يوقر خيارهم شرارهم، وما لم يعظم أبرارهم فجارهم؛ فإذا فعلوا ذل رفعها عنهم وقذف في قلوبهم الرعب، وأنزل عليهم الفاقة، وسلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب. وقال حذيفة: لا يأتيهم أمر يضحكون منه إلا ردف أمر يشغلهم عن ذلك. فليكن الموت من شأنك وبالك. وأقل الأمل وأكثر ذكر الموت فإنكم إذا

(٤٨) التذكرة الحمدونية (١/ ٣٩٠).

ذكرتموه في قليل كثرة. واعلم أنه قد دنا من الناس أمور، وحضرت أمور يشتهي لها الرجل الموت، والسلام[٤٩].

أوصى زيد بن علي ابنه:

فقال: يا بني، إن الله تعالى لم يرضك لي فأوصاك بي، ورضيني لك فحذرنيك؛ واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة إلى التفريط، وخير البناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق[٥٠].

أوصى عبد الله بن الحسن ابنه محمدًا لما أراد أن يستتر:

فقال: يا بني إني مؤد إليك حق الله تعالى في تأديبك ونصيحتك، فأد إلي حقه في الاستماع والقبول: يا بني، كف من الأذى، وأفض الندى، واستعن على السلامة بطول الصمت في المواطن التي تدعوك نفسك إلى الكلام فيها، فإن الصمت حسن. وللمرء ساعات يضره فيها خطؤه ولا ينفعه فيها صوابه. واعلم أن من أعظم الخطأ العجلة قبل الإمكان، والأناة بعد الفرصة. يا بني، احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحًا كما تحذر عداوة العاقل إذا كان لك عدوًا، فيوشك الجاهل أن يورطك بمشورته في بعض اغترارك فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل. وإياك ومعاداة الرجال فإنه لا يعدمك منها مكر حليم ومباراة جاهل[٥١].

(٤٩) التذكرة الحمدونية (١/ ٣٨٤).
(٥٠) السابق (١/ ٣٨٣).
(٥١) السابق (١/ ٣٨٤).

وصايا الحكماء والشعراء

كان دريد بن الصمة يقول: النصيحة ما لم تهجم على الفضيحة. وإذا أجدبتم فلا ترعوا حمى الملوك، فإنه من رعاه غانما لم يرجع سالمًا. ولا تحتقروا شرًا فإن قليلة كثير. ومن خرق ستركم فارقعوه، ومن حاربكم فلا تغفلوه، وأحيلوا حدكم كله عليه. ومن أسدى إليكم خطة خير فأضعفوا له، وإلا تعجزوا أن تكونوا مثله. ومن كانت له مروءة فليظهرها. ولا تنكحن دنيا من غيكم فإن عاره عليكم. وإياكم وفاحشة النساء. وعليكم بصلة الرحم فإنها تديم الفضل وتزيد النل. وأسلموا ذا الجريرة بجريرته، ولا تسخطن أحدًا من غيركم فتعلقوه بينكم[٥٢].

قال أكثم بن صيفي: يا بني تميم، لا يفوتنكم وعظي أن فاتكم الدهر بنفسي. وإن بين حيزومي وصدري لبحرًا من الكلم لا أجد له مواقع غير أسماعكم، ولا مقار إلا قلوبكم، فتلقوها بأسماع صاغية، وقلوب واعية، تحمدوا عواقبها: إن الهوى يقظان، والعقل راقد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والروية مقيدة، ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم، ولن يعدم المشاور مرشدًا، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل. ومن سمع سمع به. ومصارع الألباب تحت ظلال الطمع، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الألباب تحت ظلال الطمع، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام. وعلى الاعتبار طريق الرشاد. ومن سلك الجدد أمن العثار. ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤرض غيظه، ولا يجاوز نفسه ضره. يا بني تميم: الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر الندم. ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم. وكلم اللسان أنكى من كلم الحسام. والكلمة مزمومة ما لم تنجم من الفم، فإذا تجمت فهي سبع محرب، ونار تتلهب. ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز. ونفاذ الرأي في الحرب أنفذ من الطعن والضرب[٥٣].

وكتب ملك هجر، أو نجران إلى أكثم أن يكتب إليه بأشياء ينتفع بها، وأن يوجز.

---

(٥٢) التذكرة الحمدونية (١/ ٣٨٧).

(٥٣) جمهرة خطب العرب (١/ ١٣٥).

فكتب إليه:

" إن أحمق الحمق الفجور، وأمثل الأشياء ترك الفضول، وقلة السَّقط لزوم الصواب، وخير الأمور مغبَّة ألاَّ تني في استصلاح المال، وإياك والتبذير فإن التبذير مفتاح اليؤس، ومن التواني والعجز نتجت الهلكة، وأحوج الناس إلى الغنى من لا يصلحه إلا الغنى - وأولئك الملوك - ، وحبُّ المديح رأس الضياع، وفي المشورة صلاح الرعية ومادة الرأي، ورضا الناس غاية لا تدرك، فتحرَّ الخير بجهدك، ولا تحفل سخط من رضاه الجور، ومعالجة العقاب سفهٌ، وتعوَّد الصَّبر، لكل شيءٍ ضراوة، فضرِّ لسانك بالخير، وتوكَّل بالمهمّ، ووكِّل بالصغير، وأخِّر الغضب فإن القدرة من ورائك، وأقل الناس في البخل عذرا أقلُّهم تخوُّفا للفقر، وأقبح أعمال المقتدرين الانتقام، جاز بالحسنة، ولا تكافئ بالسَّيِّئة، فإن أغني الناس عن الحقد من عظم خطره عن المجازاة، وإن الكريم غير المدافع إذا صال بمنزلة اللئيم البطر، من حسد من دونه قلّ عذره، ومن حسد من فوقه فقد أتعب نفسه، من جعل لحسن الظَّنِّ نصيبا روَّح عن قلبه، وأصدر به أمره "[٥٤].

وكتب الحارث بن أبي شمر الغسَّاني ملك عرب الشام إلى أكثم بن صيفي بن رباح، أن هرقل نزل بنا، فقامت خطباءُ غسّان فتلقَّته بأمر حسن، فوافقه، فأعجب به، فعجب من رأيهم وأحلامهم، وأعجبني ما رأيت منهم، ففخرت بهم عليه، فقال: هذا أدبي فإن جهلت ذاك فانظر، هل بجزيرة العرب مثل هؤلاء حكمة، وعقولا، وألسنة.

فكتب إليه أكثم: " إن المروءة أن تكون عالما كجاهل، وناطقا كَعييّ، والعلم مرشدة، وترك ادّعائه ينفي الحسد، والصَّمت يكسب المحبَّة، وفضل القول على الفعل لؤم، وفضل الفعل على القول مكرمة، ولم يلزَّ الكذب بشيء إلا غلب عليه، وشرّ الخصال الكذب، والصَّديق من الصِّدق سمِّيَ، والقلب يتّهم وإن صدق اللسان، والانقباض من الناس مكسبة للعداوة، والتقرُّب من الناس مجلبة لجليس السُّوءِ، فكن من الناس بين المنقبض والمسترسل، وخير الأمور أوساطها، وأفضل القرناء المرأة الصالحة، وعند الخوف حسن العمل، ومن لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من علمه زاجر " أي لم يحفل بمرشد " ،

(٥٤) المعمرون والوصايا (صـ١٧).

ومن أهمل نفسه أمكن عدوَّه " أو قال تمكن من عدوه " على أسوأ عمله، وفسولة الوزراء أضرُّ من بعض الأعداء، وأوَّل الغيظ الوهن "[٥٥].

قالوا: وكتب النعمان بن المنذر إلى أكثم، وذكر ملك من ملوك فارس رجال العرب وعداوة بعضهم لبعض، وحالهم في بلادهم، فقال الفارس: هذا لخفّة أحرمهم، وقلّة عقولهم.

فكتب إلى أكثم أن اعهد إلينا أمرا نعجب به فارس ونرغبهم به في العرب.

فكتب أكثم: " لن يهلك امرؤ حتى يضيِّع الرأي عند فعله، ويستبدّ على قومه بأموره، ويعجب بما ظهر من مرؤته ويغترّ بقوَّته، والأمر يأتيه من قومه، وليس للمختال في حسن الثناء نصيب، والجهل قوة الخرق، والخرق قوة الغضب، وإلى الله تصير المصائر، ومن أتى مكروها إلى أحد فبنفسه بدأ، إن الهلكة إضاعة الرأي، والاستبداد على العشيرة يجرُّ الجريرة، والعجب بالمروءة دليل على الفسولة، ومن اعترّ بقوته فإن الأمر يأتيه من فوقه، لقاء الأحبة مسلاة للهم، من أشرّ ما لا ينبغي إعلانه ولم يعلن للأعداء سريرته سلم الناس عليه، والعيُّ أن تكلّم يفوق ما تسدّ به حاجتك، وينبغي لمن عقل ألا يثق بإخاء من لم تضطرّه إليه حاجة، وأقلُّ الناس راحة الحقود، ومن أتى على يديه غير عامد فأعفه من الملامة " أو اللائمة " ، ولا تعاقب على الذنوب إلا بقدر عقوبة الذنب فتكون مذنبا، ومن تعمد الذَّنب لم تحل الرحمة دون عقوبته، والأدب رفق، والرفق يمن، والخرق شؤم، وخير السخاء ما وافق الحاجة، وخير العفو ما كان مع القدرة، ومن سوء الأدب كثرة العتاب، ومن اغترّ بقوَّته وهن، ولا مروءة لغاشّ، ومن سفه حلمه هان أمره، والأحداث تأتي بغتة، وليس في قدرة القادر حيلة، ولا صواب مع العجب، ولا بقاء مع بغيٍ، ولا تثقنَّ بمن لم تختبره "[٥٦].

عن عيسى ابن لقمان، عن محمد بن حاطب الجمحي قال: عاش ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم ابن عمرو بن هصيص مائتي سنة، ولم يشب شيبة قط، وأدرك الإسلام فلم يسلم.

وقد اختلف في إسلامه، فقالت نائحته بعد موته:

من يأمن الحدثان بعد ضبيرة السهميِّ ماتا

(٥٥) السابق نفسه.

(٥٦) السابق نفسه.

سبقت منيته المشيب وكان ميتته افتلاتا
فتزودَّوا لا تهلكوا من دون أَهلكم خفاتا

قال وعاش ذويد بن نهد أربعمائة سنة وستا وخمسين سنة، فلما حضره الموت قال:

أَلقى غليَّ الدهرُ رجلا ويَدا والدَّهر ما أصلح يوما أَفسدا

يُفسد ما أَصلحه اليوم غدا وقال أيضا:

يا رب نهبٍ صالحٍ حويتُهُ وربَّ حَسَنٍ لوَيتُهُ
اليوم يبني لدويد بيتُهُ لو كان للدَّهر بلى أَبليتُهُ

أَو كان قرني واحدا كفيتُهُ

ثم مات مكانه.

قالوا: وجمع بني عند الموت، فقال: " أوصيكم بالناس شرًّا، لا تقبلوا لهم معذرة ولا تُقيلُوهم عثرة، أوصيكم بالناس شرا، طعنًا وضربا، قصروا الأعنَّة، اشرعوا الأسنَّة، وارعوا الكلأ وإن كان على الصَّفا، وما احتجتم إليه فصونوه، وما استغنيتم عنه فأَفسدوه على من سواكم، فإن غشّ الناس يدعوا إلى سوء الظن، وسوء الظن يدعو إلى الاحتراس " .

وأوصى نهد بن زيد بنيه فقال: " يا بنيّ، أَوصيكم بالناس شرا، كلموهم نزرا، واطعنوهم شزرا، ولا تقبلوا لهم عذرا، ولا تقيلوهم عثرة، وقصروا الأعنَّة، واشحذوا الأسنَّة تأكلوا بذلك القريب، ويرهبكم البعيد، وإياكم والوهن فيطمع فيكم الناس "[٥٧].

وعاش دريد بن الصَّمة الجشمي، من جُثم بن سعد بن بكر، نحوا من مائتي سنة، حتى سقط حاجباه على عينيه، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وقتل يوم حنين كافرا، وإنما خرجت به هوازن تتيَّمن به.

وقال دريد:

فإن يكَ رأسي كالثَّغامة نسلُهُ يطيف بي الولدان أَحدبَ كالقردِ

(٥٧) السابق نفسه.

رهينــة قعــرِ البيــت كــلَّ عــشيَّةٍ كــأني أُرقّــي أو أُصــوَّبُ في المهـد
فمـن بعـد فـضل مـن شـباب وقـوَّة وشـعر أَثيــثٍ حالـك اللـون مـسودِّ

وأنه لما كبر أراد أهله أن يحبسوه، فقالوا: إنا حابسوك وما نعوك من كلام الناس، فقد خشينا أن تخلط فيروى ذلك الناس علينا، ويرون منك عارا.

قال: أَوقد خشيتم ذلك مني؟ قالوا: نعم.

قال: فانحروا جزورا، وأصنعوا طعاما، وأجمعوا إلى قومي حتى أحدث لهم عهدا.

فنحروا جزورا، وعملوا طعاما، ولبس ثيابا حسانا، وجلس لقومه، حتى إذا فرغوا من طعامهم قال:

" اسمعوا مني، فإني أرى أمري بعد اليوم صائر لغيري، وقد زعم أهلي أنهم خافوا على الوهم، وأنا اليوم خبير بصير، إن النصيحة لا تهجم على فضيحة، أما أول ما أنهاكم عنه فأنهاكم عن محاربة الملوك، فإنهم كالسَّيل بالليل، لا تدري كيف يأتيه، ولا من أين يأتيك، وإذا دنا منكم الملك واديا فاقطعوا بينكم وبينه واديين، وإن أجدبتم فلا ترعوا حمى الملوك وإن أذنوا لكم، فإن من رعاه غانما لم يرجع سالما، ولا تحقرن شرا فإن قليله كثير، واستكثروا من الخير فإن زهيده كبير، اجعلوا السلام محياة بينكم وبين الناس، ومن خرق ستركم فارقعوه، ومن حاربكم فلا تغفلوه، وروا منه ما يرى منكم، واجعلوا عليه حدَّكم كلَّه ومن تكلَّم فاتركوه، ومن أسدى إليكم خيرا فاضعوا له، وإلا فلا تعجزوا أن تكونوا مثله، وعلى كل إنسان منكم بالأقرب إليه، يكفي كلُّ إنسان ما يليه، وإذا التقيتم على حسب فلا تواكلوا فيه، وما أظهرتم من خير اجعلوه كثيرا، ولا ير رفدكم صغيرا، ولا تنافسوا السؤدد، وليكن لكم سيِّد، فإنه لابد لكل قوم من شريف، ومن كانت له مروءة فليظهرها، ثم قومه أعلم، وحسبه بالمروءة صاحبا، ووسعوا الخير وإن قلَّ، وافنوا السرَّ يمت، ولا تنكحوا دنيا من غيركم فإنه عار عليكم، ولا يحتشمنَّ شريف أن يرفع وضيعه بأياماه، وإياكم والفاحشة في النساء فإنها عار أبدٍ وعقوبة غدٍ، وعليكم بصلة الرحم فإنها تعظم الفضل وتزين النسل، وأسلموا ذا الجريرة بجريرته، ومن أبى الحق فاعلقوه إياه، وإذا عييتم بأمر فتعاونوا عليه تبلغوا، ولا تحضروا ناديكم السَّفيه، ولا تلجوا بالباطل فيلجّ بكم " .

قالوا: وعاش عبيد بن شرابة الجرهمي ثلاثمائة سنة، وقال بعضهم، مائتين وعشرين سنة، إلا أنا نظن أنه عاشها في الجاهلية، وأدرك الإسلام، فأسلم؛ وقدم عل معاوية بن أبي سفيان.

فبلغنا أن معاوية قال له: أخبرني، كم أتى عليك؟ قال: مائتان وعشرون سنة.

قال: ومن أين علمت؟ قال: من كتاب الله.

قال: ومن أي كتاب الله؟ قال: من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ... ﴿١٢﴾﴾ (الإسراء:١٢) فقال له معاوية: وما أدركت؟ قال: أدركت يوما في أثر يوم، وليلة في أثر ليلة متشابها كتشابه الحذف يحدوان بقوم في ديار قوم يكذبون، وما يبيد عنهم ولالا يعتبرون بما مضى منهم، حيُّهم يتلف، وملودهم يخلف، في دهر قد تصرف أيامه، تقلّب بأهلها كتقلبها دهرها، بينا أخوة في الرَّخاء إذا صار في البلاد، وبينا هو الزيادة إذ أدركه النُّقصان، وبينا هو حرّ إذا أصبح فيئا لا يدوم على حال، ولا تدوم له حال، بين مسرور بمولود ومحزون بمفقود، فلولا أن الحيّ يتلف لم يسعهم بلد، ولولا المولود يخلف لم يبق أحد.

قال معاوية: يا عبيد، أخبرني عن المال، أية أحسن في عينك؟ قال: أحسن المال في عيني، وانفعه غناء، وأقلّه عناء، وأبعده من الآفة، وأجداه على العامة عين خرارة في أرض خوارة، إذا استودعت أدَّت، وإن استحلبتها درَّت فأفعمت، تعُولُ ولا تُعال.

قال معاوية: ثم ماذا؟ قال: فرس في بطنها قد ارتبطت منها فرسا.

قال معاوية: فأي النَّعم أحب إليك؟ قال: النَّعم لغيرك يا أمير المؤمنين.

قال: فلمن؟ قال: لمن فلاها بيده وباشرها بنفسه.

قال معاوية: حدثّني عن الذهب والفضة.

قال: حجران إن أخرجتهما نفذا، وإن خزنتهما لم يزد.

قال معاوية: فأخبرني عن قيامك وقعودك، وأكلك وشربك، ونومك، وشهوتك للباءة.

قال: أما قيامي فإن قمت فالسماء تبعد، وإن قعدت فالأرض تقرب؛ وأما أكلي وشربي إن جعت كلبت، وإن شبعت بهرت؛ وأما نومي فإن حضرت مجلسا حالفني، وإن خلوت أطلبه فارقني؛ فإن بذلت لي عجزت وإن مُنعت غضبت.

قال معاوية: فأخبرني عن أعجب سيئ رأيته.

قال: أعجب شيء رأيته، أني نزلت بحي من قضاعة، فخرجوا بجنازة رجل من عذرة، يقال له، حُريث بن جبلة، فخرجت معهم حتى إذا واروه انتبذت جانبا عن القوم، وعيناي تذرفان، ثم تمثلت شعرا كنت رويته قبل ذلك:

يا قلب إنَّك في أسماء مغرور ... اذكر، وهل ينفعك اليوم تذكيرا؟
قد بحت بالحب ما تخفيه ... حتَّى جرت بك إطلاقا محاضير
تبغي أمورا فما تدرس أَعاجلها ... خير لنفسك أَم ما فيه تأخيرُ
فاستقدرِ الله خيرا، وارضينَّ به ... فينما العسر إذا دارت مياسير
وبينما المرء في الأحياء مُغتبطا ... إذ صار في الرَّمس تعفوه الأعاصير
حتَّى كأَن لم يكن إلاّ تذكرُّه ... والدَّهرُ أيَّة ما حالٍ دهارير
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته في الحِّ مسرور
وذاك آخر عهد من أَخيك إذا ... ما المرء ضمنَّه اللحد الخناسير

الخنثير والجمع الخناسير، ويقال الخناشرة، وهم الذي شيعوا الجنازة.

فقال رجل إلى جانبي يسمه ما أقول: يا عبد الله، من قال هذه الأبيات؟ قلت: والذي أحلف به، ما أدري أني قد رويتها منذ زمان.

قال: قائله الذي دفناه آنفا، وإن هذا ذو قرابته أَسرُّ الناس بموته، وإنك للغريب الذي وصف تبكي عليه. فعجبت لما ذكر في شعره والذي صار إليه من قوله، كأنه كان ينظر إلى موضع قبره(٥٨).

لما كبر عامر بن الظَّرب وتخوّف قومه أن يموت اجتمعوا إليه، فقالوا له، يا سيدنا وشريفنا، أوصِنا.

(٥٨) تاريخ دمشق (٣٨/ ٢٠٤).

فقال: " يا معشر عدوان، كلفتموني تعبا، إن القلب لم يخلق، ومن لك بأخيك كلّه، إن كنتم شرَّفتموني فقد التمست ذلك منكم، وإني قد أريتكم ذلك من نفسي، وأنّي لكم مثلي، افهموا عني ما أقول لكم؛ من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق، لا تفرحوا بالعلق ولا تشمتوا بالزلّة، وبكل عيش يعيش الفقير، ومن ير يوما ير به، وأعدّوا لكل أمر قدره، قبل الرِّماء تملأُ الكنائن، ومع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال وفيها ذمامة، فلا تذموا العقوبة، واليد العليا معها عافية، والقود راحة لا عليك ولا لك، وإذا شئت وجدت مثلك، إنَّ عليك كما أَنّ لك، وللكثرة الرُّعب وللصبر الغلبة، من طلب شيئا وجده، وإلاّ يجده يوشك أن يقع قريبا منه.

فيا معشر عدوان، إياكم والشر فإن له باقية، وادفعوا الشر بالخير يغلبه، إنه من دفع الشرَّ بالشرِّ رجع الشرُّ عليه، وليس في الشرِّ أسوة، ومن شبقكم إلى خير فاتبعوا أثره تجدوا فضلا، إن خالق الخير والشر وسعهما، ولكل يد منهما نصيب.

يا معشر عدوان، إن الأوّل كفى الآخر، فمن رأيتموه أصابه شر فإنما أصابه فعله، فاجتنبوا ذلك الذي فعله؛ يا معشر عدوان، إن الشرّ ميّت، وإنما يأتيه الحيّ فيصيبه، ومن اجتنب الشرّ لم يثب الشرُّ عليه؛ يا معشر عدوان، إن الخير عزوف ألوف، ولم يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه ولن يرجع إليه حتى يأتيه؛ يا معشر عدوان، ربُّوا صغيركم، واعتبروا بالناس ولا يعتبر الناس بكم، وخذوا على أيدي سفهائكم تقلل جر أثركم، وإياكم والحسد فإنه شؤم ونكد، وإن كلَّ ذي فضل واجد أفضل منه، ومن بلغ منكم خطَّة خير فأعينوه واطلبوا مثلها، ورغِّبوه في نيّته، وتنافسوا في طريقته، ومن قصّر فلا يلومنّ إلا نفسه، وإني وجدت صدق الحديث طرفا من الغيب فاصدقوا تصدَّقوا.

" يقول من لزم الصدق وعوّده لسانه وفّق فلا يكاد يتكلم بشيء يظنّه إلا جاء على ظنّه " .

وإنّي رأيت للخير طرقًا فسلكتها، ورأيت للشرّ طرقًا فاجتنبتها، وإني والله ما كنت حكيما حتى تبعت الحكماء، وما كنت سيِّدكم حتى تعبّدت لكم،

إن الموعظة لا تنفع إلا عاقلا، وإن لكلّ شيء داعيا، فأجيبوا إلى الحق وادعوا إليه وأذعنوا له " يريد ذلُّوا للحق " (٥٩).

قالوا: وعاش القلمَّس، وهو أمية بن عوف، دهرا طويلا، وهو من حكماء العرب، وكان جده الحارث بن كندة، وهو الذي يقوم بفناء البيت ويخطب العرب، وكانت العرب لا تصدر حتى يخطبها ويوصيها، فقال: " يا معشر العرب، أطيعوني ترشدوا " .

قالوا: وما ذاك؟ قال: " إنكم قوم تفرَّدتم بآلهة شتّى، وإني لأعلم ما الله بكل هذا براض، وإن كان ربَّ هذه الآلهة، إنه ليحبّ أن يعبد وحده " .

فنفرت العرب عنه ذلك العام، ولم يسمعوا له موعظة.

فلما حجّ من قابل اجتمعوا إليه، وهم مزورُّون عنه، فقال: " مالكم أيها الناس كأنكم تخشون مثل مقالتي عاما أول، إني والله لو كان الله تعالى أمرني بما قلت لكم ما أعتبتكم ولا استعتبت، ولكنه رأى مني، فإذا أبيتم فأنتم أبصر، أوصيكم بخصلتين، الدّين والحسب، فأما الدين فلّله، ومن أعطيتموه عهدا ففوا له، ومن أعطاكم عهدا فارعوا عهده حتى تردّوه إليه؛ فأما الحسب فبذل النَّوال " .

فلما حضرته الوفاة حضره أشراف قومه من كنانة، ومات بمكة، فقالوا: قل نسمع، ومرنا نطِع، وأوصنا نقبل، وزوِّدنا منك زادًا نذكرك.

فقال: " أوصيكم بأحسابكم فإنها مقدم وافدكم، وشرفكم في محافلكم، وكفاف وجوهكم، وعنى معدمكم؛ وأوصيكم بالسائل إن كان منكم أن يسأل غيركم؛ وإن كان من سواكم وتيمّمكم فلا تخطُّنَّه ما رجا فيكم، واستوصوا بذوي أسنانكم خيرا، أجملوا مخاطبتهم، وقدّموهم أمامكم، وزيِّنوا بهم مجالسكم، وأوصيكم ببيوت الشرف فيكم، أقيموا لهم شرفهم، ولا تنزعوا الرئاسة منهم حتى لا تجدوا لها منهم أهلا، وأوصيكم بالحرب، إن ظفرتم بقوم فابقوا فيهم، فإنه حسب لكم، ويد عند عدوِّكم، فإنّ من ظفرتم به فهو ظافر بكم لا بدّ، وهو عامل فيكم بما عملتم به فيه، فلا تقتلن أسيرا فإنه ذحل عندكم ومصيبة فيكم، وإنما هو مال من مالكم، وإن

(٥٩) المعمرون والوصايا (صـ١٩) .

الأسراء تجارة من تجارات العرب فلا تسألنّ أسيركم فوق ما عنده فيموت في أيديكم، فلا يستأسر بعده أحدٌ بكم، وأكثروا العتاقة في أسراء العرب، ودعوا العرب ترجوكم وتستبقيكم.

وأوصيكم بالضيف، فإنّ كلًّا إذا قال لم يسمع منه حتى يقول الضيف، فلا يخرجنَّ من عندكم وهو يستطيع أن يقول فيكم، وأوصيكم بالجيران فأكرموهم، فلا تغشوا منازلهم، وليصحبهم ذوو أسنانكم، وامنعوا فتيانكم صحابتهم، وأوصيكم بالخفراء خيرا فلا تغرِّموهم في غرمكم، وأغرموا في غرمهم فإنّهم عدّة لكم، يعينونكم ما داموا فيكم، وينقصونكم إذا فارقوكم ويعينون عليكم إذا خرجوا من عندكم، وأوصيكم بأياماكم خيرا، شدّوا حجبهن، وانكحوهن أكفاءهن، وأيسروا الصداق فيما بينكم، تنفق أياماكم ويكثر نسلكم، فإن نكحتم في العرب فاختاروا لكم ذوات العفاف والحسان أخلاقا، فإنكم لما يكون منهم أحمد من غيركم، وإنهم راعُون فيمن بقي من نسائكم مثل ما رأوا فيمن جاءهم منهنّ، وإذا نكحتم الغريبة " يعني المرأة من غيركم " فأعلوا صداقها، وتزوّجوا في أشراف القوام، ثم أكرموا مثوى صاحبتهم ما كانت فيكم، ولا تحرموها إذا انصرفت إلى قومها مالها، واصرفوها على أحسن حالاتها، لا تنقصوها من شيء يكون لها، فإن كريمة القوم إذا رجعت إليهم قليلا متاعها ظاهرة حاجتها غير راجعة فيكم غيرها.

وأوصيكم بالصِّلة، فإنها تديم الألفة وتسرّ الأسرة، وأحذِّركم القطيعة فإنها تورث الضغينة، وتفرِّق الجماعة، وإياكم والعجلة فإنها رأس السَّفه"[٦٠].

وأوصي زرارة بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم، أنه جمع بنيه وبني بنيه فقال: يا بنيّ، إنكم قد أصبحتم بيت تميم، بل بيت مُضر، يا بنيّ، ما هجمت على قوم قطُّ من العرب لا يعرفونني إلا أحلوني، فإذا نسبوني ازددت عندهم شرفا، وفي أعينهم عظما، ولا وفدت إلى ملك إلا آثرني وشفعني، خذوا من أدبي، واثبتوا عند أمري، واحفظوا وصيتي.

(٦٠) السابق نفسه.

" إياكم أن تدخلوا عليّ في قبري حوبة أسبّ بها..."كذا قال أبو حاتم، حوبة، وليس لها ههنا معنى، وينبغي أن تكون خربة، وهي المنقصة، أو خزّية، والحوبة الخالة، وقال قوم هي الأمُّ " .

... فوالله ما شايعتني نفسي قط على إتيان ريبة، ولا عمل بفاحشة، ولا ضمّني وعاهرة سقف بيت قط، ولا حسّنت لي نفسي الغدر منذ شدّت يداي مئزري، ولا فارقني جار على قلي، ولا حملني هواي على أمر يعييني في مضر.

يا بني، إن القالة إليكم سريعة، فاتقوا الله في الليل إذا أظلم، وفي النهار إذا انتشر يكفكم ما أهمّكم، وإياكم وشرب الخمر، فإنها مفسدة للعقول والأجساد، ذهّابة بالطريف والتلاد.

يا بني، زوّجوا النساء الأكفاء، وإلا فانتظروا بهنّ القضاء.

يا بني، قد أدركت سفيان بن مجاشع بن دارم شيخا كبيرا محجوبا، فأخبرني أنه قد حان خروج نبي بمكّة من مضر، يقال له، أحمد، عليه السلام، يدعو إلى عبادة الله، فإن أدركتموه فاتبعوه، تزدادوا بذلك شرفا إلى شرفكم، وعزًّا إلى عزّكم، إنه ليس فيكم سقط رجل واحد، ولا تمنَّيتكم أنّي بدِّلتكم بعدَّتكم من العرب، ولولا عجلة لقيط إلى الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث لشرّفته عليكم، وهو بعد فارس مضر، وعليكم بحاجب، فإنه حليم عند الغضب، فرّاج للكرب، يجود إذا طلب إليه، ذو رأي لا ينكش، وزمَّاع لا يفحش، فاسمعوا له وأطيعوا أمره، جنَّبكم الله الردى.

" لا ينكش لا يستقصي ما فيه، يقال: نكشت البئر أي أخرجت ما فيها، والزَّمّاع العزم، لا يفحش أي لا ينتقص"[٦١].

(٦١) المعمرون والوصايا (صـ٣٧).